كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة الثالثة فنون درامية/ السداسي الخامس

مقياس: نقد مسرحي حديث ومعاصر

المحاضرة رقم 03 بعنوان:

" معايير النقد عند كاسيوس لونجينوس:
مقاربة فلسفية في ضوء النقد الأدبي"

يطرح الناقد الإغريقي كاسيوس لونجينوس مفهوم السمو الأدبي من خلال تساؤل جوهري مفاده» :هل ثمة وجود فعلي لأسلوب رفيع في الأدب؟«، وهو تساؤل يستبطن رؤية نقدية تتجاوز ظاهر اللغة إلى جوهر الإبداع ذاته. فالأسلوب الرفيع في نظر لونجينوس ليس مجرد مهارة مكتسبة، بل هو استعداد فطري وهبة موروثة، تتبلور وتكتمل بالتثقيف والرعاية والتمرين عبر وسائل شتى. ومع ذلك، يرى أن الخبرة والتمرس الفني شرطان لا غنى عنهما لتثمر الموهبة الفطرية وتبلغ غايتها القصوى في الإبداع الأدبي.

ويعد لونجينوس ناقدا ومفكرا ذا نزعة واقعية في مقاربته للفكر الأدبي؛ إذ يؤمن بأن العبقرية لا تنفي إمكان الخطأ، فيشير إلى أن هوميروس، رغم مكانته الأسطورية، وأفلاطون، بنقائه اللغوي وسموه الفكري، كلاهما لم يسلم من الهفوات والزلات.

ويعرّف لونجينوس السمو الفني بأنه قدرة التعبير الرصين المستمد من منبع الإلهام الأصيل الذي يتغذى منه الشعراء الكبار والأدباء العظام، وهو ما يهبهم الخلود الأدبي والمكانة الرفيعة. فالسمو عنده حصيلة تفاعلٍ معقد بين المهارة والابتكار والتنظيم الدقيق وترتيب الأفكار، حيث تتآلف هذه العناصر لتنتج مزيجا جماليا فريدا لا يبلغه أصحاب المواهب المتوسطة، لأنه ليس ثمرة عامل واحد، بل نتاج تآزر المنظومة الإبداعية برمتها.

ويرى لونجينوس أن الناقد الحقيقي هو من يستمد أحكامه من خبرة طويلة ودراية متعمقة، وأن القادرين على التمييز بين الأصيل والزائف في الأدب هم وحدهم الذين يمتلكون هذه القدرة النقدية الفطرية والمكتسبة معا.

أما مصادر الأسلوب الرفيع عند لونجينوس، فيحددها في خمسة محاور رئيسة:

1. عظمة الفكرة وقدرة الكاتب على ابتكار تصورات سامية تنبثق من إحكام القبض على المعنى والفكر.
2. العاطفة الجياشة التي تمثل منبع الإلهام وقوة الدفع في التعبير الفني.
3. الأساليب البلاغية المؤثرة وحسن توظيفها في ترتيب الألفاظ والمعاني.
4. نقاء اللغة ورونقها بما تتسم به من وضوح وسلاسة وسمو في المفردات والتراكيب.
5. جلال التأليف وقوة التأثير التي تفضي إلى بلوغ العظمة والرفعة الفنية.

ويُعد لونجينوس، بحق، رائد النقد الرومانسي ومؤسس النقد المقارن قبل ظهورهما كمجالين مستقلين في الفكر الغربي؛ إذ تجاوز اهتمامه حدود الأنواع الأدبية التي ركز عليها أرسطو، مثل الملحمة والتراجيديا، ولم يسع إلى وضع نظرية شاملة للفن من حيث طبيعته ووظيفته، بل وجه نظره إلى العبارة الفنية ذاتها، والقصيدة أو المقطع الذي يثير دهشة المتلقي ويستأثر باهتمامه.

وفي العصور الوسطى، تماهى الجمال الفني مع الحقيقة الروحية، حيث خضع الفن لسلطة الكنيسة منذ انقسام الإمبراطورية الرومانية حتى عصر النهضة. وقد رأى فلاسفة تلك المرحلة، وفي مقدمتهم القديس

توما الأكويني، أن الجمال يتجلى في التناسب والتناغم والنظام الذي يرضي الحس والعقل معا، ويقود إلى التأمل في عظمة الخالق.

ويمثل كتاب »الأسلوب السامي «للونجينوس منعطفا حاسما في تاريخ النقد الأدبي، إذ يشهد على عقلية تحليلية دقيقة وذوق فني رفيع، ويتجلى فيه الحس النقدي العميق من خلال الأمثلة المستقاة من أعمال هوميروس وأفلاطون وديموستينيس وهيبريديس، فضلا عن مقارناته البارعة، كالمقارنة بين ديموستينيس وشيشرون، وتعليقاته على شعر سابفو .هذه الاستشهادات تكشف عن اتساع أفقه وعمق بصيرته النقدية، ما جعله في مصافّ أعظم النقاد منذ العصور الكلاسيكية.

وإذ عاش لونجينوس في زمن خبا فيه الإبداع وغابت الحرية السياسية، ختم كتابه بتساؤل فلسفي بليغ» :هل الأدب الإغريقي متوافق مع الديمقراطية؟ وهل الحرية قادرة على احتضان العبقرية وإلهامها؟«، وهو تساؤل يبرز إيمانه العميق بأن الحرية شرط للعبقرية ومصدر لتغذيتها الروحية والفكرية.

وفي ضوء هذا التصور، يتضح أن فكر لونجينوس قد أسّس لمرحلة من النقد تجمع بين الواقعية والتجريبية النقدية، ممهّدا لظهور ما يُعرف لاحقا بالنقد الوضعي، في مقابل النقد الانطباعي الذي اكتفى بنقل الانطباعات السطحية دون تحليل أو تعليل منهجي.

ويتقاطع فكره مع رؤية سانت بيف الذي يرى أن الناقد هو من "يعرف كيف يقرأ وكيف يعلّم الآخرين القراءة"، أي استقراء النصوص الأدبية وتحليلها شكلا ومضمونا لتتحول القراءة إلى فعل معرفي وتنويري يسهم في تربية الذوق العام.

وعليه، فإن الإبداع في منظور لونجينوس يتطلب موهبة فطرية مقرونة بثقافة مكتسبة، كما يشترط في الناقد أن يمتلك حسّا فنيا وفهما دقيقا، وقدرة على التذوق والملاحظة والتمييز بين الأساليب، بحيث تتكامل لديه الموهبة مع الخبرة لإصدار حكم نقدي موضوعي قائم على التحليل والتقويم.

ومن ثمّ، يغدو النقد الأدبي ممارسة معرفية متعددة الأبعاد، تتجاوز النص إلى علاقته بالوجود والإنسان والمعرفة، فتتداخل فيه علوم النفس والاجتماع والمنطق واللسانيات لتشكّل ما يسمى اليوم بـ العلم

البيني .وهذا التداخل يؤكد أن النقد الحديث وريثٌ مباشرٌ لروح لونجينوس، الذي ربط بين الجمال والمعرفة، وجعل من السمو غاية عليا للفكر والإبداع الإنساني.

المكتبة البيبليوغرافية:

- رسالة لونجينوس عن الأسلوب السامي (الرفيع).
- عبد المجيد زراقط، النقد الأدبي... مفهومه مساره التاريخي ومناهجه.
- Dionysius Longinus, Sublime : translated from the Greek.